المحاضرة السادسة: الشعر الثوري

عاصر الشعر الجزائري مراحل الاحتلال وحمل الهموم الحضارية والاجتماعية والسياسية للوطن والشعب، وكان يحمل كذلك بذور الثورة بما مثله من قلق وشكوى ونقمة. ولم يكن هذا الشعر غائبا عن المقاومة منذ بداية الاحتلال، ومن يطلع على كتاب عبد الملك مرتاض (أدب المقاومة الوطنية في الجزائر...)، وكتاب عبد الله ركيبي (الشعر الديني الجزائري الحديث) و كتاب نور سلمان (الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير)، من يطلع على هذه الكتب، تعطيه صورة عن إرهاصات هذه المقاومة والنضال عند شعراء الجزائر قبل النهضة سنة 1925.

وبناء على ذلك فإن ثورة التحرير الكبرى لم تكن وليدة 1954، وإنما بدأ التحضير لها في وقت مبكر، وتنبأ بها الشعراء قبل وقعها بعقود، وقد أشار إلى هذه القضية أكثر من شاعر أو ناقد، يقول حمزة بوكوشة: "إن للشعر تنبؤات صادقة كالرؤيا الصالحة، تأتي كفلق الصبح المبين، وأن للشعر وحيا وإلهاما يصدقه الواقع ولو بعد سنين... والشعراء في كل أمة من الأمم هم حُدَّاتُها إلى المجد القديم والنعيم المقيم ودعاتها إلى الثورة على العبودية، والتمتع بالحرية، وهُداتها إذا اشتبكت المسالك والدروب، وهم المعبرون عما تكنه الأمة في ضميرها بصدق وحكمة"[1].

ويقول عبد الملك مرتاض: "فهذه الثورة العظيمة وقع التحضير لها على امتداد خمسة وثلاثين عاما على الأقل، أي منذ ظهور حركة الإصلاح للأمير خالد عام 1919 إلى عام 1954"[2].

وتقول الدكتورة نور سلمان: "حمل الشعر قبيل الثورة إرهاصاتها، معبرا عن النقمة والتململ الرافض. فصور الأوضاع الفاسدة، والقلق والتوتر، وساهم في الدعوة إلى الوثبة، مجاهرا بتسميتها وثبة كفاح وحرب بعد أن قصر الكلام والحوار السياسي عن تحقيق الهدف"[3].

ويقول الدكتور عبد الله ركيبي: "ربما لا يعرف الكثير من الناس، أن الشعر الجزائري قد أرهص بالثورة وتكهن بها، بل ودعا إليها بصراحة في أغلب الأحيان، ورمز إليها في بعض

---

[1]- حمزة بوكوشة (تنبؤات الشعراء. أو من جبالنا) البصائر، العدد 358 ليوم الجمعة 3 شعبان 1375هـ، الموافق ل: 16 مارس 1956م، ص2.

[2]- عبد الملك مرتاض: أدب المقاومة الوطنية في الجزائر 1830-1962، ج1، دار هومة، الجزائر، 2003، ص 15

[3]- نور سلمان: الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص324.

الأحيان الأخرى...وإنه من أغرب وثبات الخيال في هذا الشعر أن يتكهن حتى بمكان الثورة، وبانطلاقها من الجبال"[1].

ويمكن تقسيم شعر الثورة الجزائرية إلى المراحل التالية:

1-شعر الإرهاص الثوري

أطل هذا الشعر مبكرا في شعر العشرينيات والمتصفح لكتاب"شعراء الجزائر في العصر الحاضر" لمحمد الهادي السنوسي الزاهري يقف على الكثير من النماذج التي ترهص للثورة مثل: قصيدة أبي اليقظان الموسومة ب: (مدارج الخلاص والتحرير إنما الدنيا جهاد) التي يقول فيها:

ابن صرح المجد عن أسّ الضحايا وأشِدْ عرش العُلا رغم البلايا

خُضْ غمار الهول غوصا إنما لؤلؤ التيجان في بحر المنايا

إن في الموت لِطُلاَّبِ العلا لحياة، لا حياة أهل الدنايا

إنما الدنيا جهاد، من ينم يومه، داسته أقدام الرزايا

ولنيل الحق أدوار غدت خطوات، خاضها كل البرايا

فأنين ... فكلام... فصياح فخصام ...فجلاد...فسرايا[2]

وقد ألقاها إثر حوادث دمشق الفظيعة، والقصيدة وهي تنطوي على نزعة ثورية قوية "وإن القارئ لها ليعجب من جرأة صاحبها، فهي دعوة صريحة إلى شن نار الثورة ضد المستعمرين الفرنسين"[3].

وقد استهلها الشاعر بالدعوة إلى خوض غمار الحرب وبناء صرح المجد على جثث الشهداء، وإلى طلب الموت وعدم القبول بحياة الذل، لأن الدنيا جهاد مستمر لمن لا يريد العيش تحت أقدام الظلم، وأن نيل الحقوق المغتصبة طريقه واضح المعالم خاضته جميع الشعوب وهو الحرب.

---

[1] – عبد الله ركيبي:دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص54.

[2] – محمد الهادي الزاهري السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 209.

[3] – محمد ناصر: مقدمة ديوان إبراهيم أبي اليقظان، ج1، ، نشر جمعية التراث، العطف، غرداية، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر. ط2، 1989، ص21.

ثم يوضح طريق التحرر وما يتطلبه من ثمن باهض لأنه في عصور الاستعمار يكون أول من يستهدف حملة الأقلام، فيعمد البغاة إلى تقييد حرية الفكر، والتنكيل بأصحابه حتى لا تتنور الشعوب بالعلم، فيكون السجن والتشريد والمشانق هي طريق كل من يفكر في الحرية، وهي قربان الاستقلال والشعب الذي لا يقبل بدفع هذا الثمن لا يحقق مراده:

ليس حكم النفي، والسجن، ولا الحكم بالشنق له إلا مطايا
أي شعب نال ما نال إذا لم يقدم سلفا تلك الهدايا
أي شعب نال حريته وهو لم يطلع لها تلك الثنايا[1]

وفي نفس الفترة يطالعنا محمد السعيد الزاهري الذي كان مثالا بأدبه في الإرهاص للثورة، ونموذجا ناذرا في حبه لبلاده ولأبناء وطنه وقضيته، في قصيدة ألقاها بمناسبة صدور العدد الأول من جريدة (الجزائر) موسومة ب (الجزائر تحييّ الجزائر) وهي وإن كانت أقل حدّة من قصيدة أبي اليقظان، في غلبة النزعة الفردية الذاتية عليها، فإنها تحمل الكثير من الإشارات الثورية، يستهلها بقوله أنه يسعى إلى المجد وإلى العلياء، فإن نال ما يريد، فهو يصبو إلى ذلك، وإن مات قبل تحقيق مراده، فقد سار على سنة سنها من قبله:

ألا في سبيل المجد حلى وترحالي ومسعاي في العلياء والشرف العالي
فإن نلت ما أبغي فذاك، وإن أمت فكم مات من دون المنى قبل أمثالي[2]

ثم يتدرج الشاعر في خطابه متحسرا على ما آل إليه وضع قومه من سوء، وأي قوم يقصدهم؟ أحرار الجزائر، أَيْ أبناء الوطن الذين يشكو من تقصيرهم في السعي لنيل حقوقهم المشروعة ويتساءل متى سيكسرون الأغلال المحاطة بأعناقهم لينعموا بالحرية، ويستنشقوا نسيم الاستقلال كما فعل غيرهم من الأحرار:

ويا ويح أحرار الجزائر كم.. وكم يهيج عليهم من هموم و بلبال
لقد كسَر الناس القيود وحطَّموا ونحن بقينا في قيود وأغلال[3]

---

[1] – المصدر السابق، ص 209.

[2] – المصدر نفسه، ص147.

[3] – المصدر نفسه، ص147

وفي قصيدة نشرت سنة 1932، يتوجه مفدي زكريا إلى الشباب الجزائري، يحثه على نجدة وطنه الذي تداولت عليه الخطوب، وتناوبت عليه المصائب جراء الاستعمار الغاشم، فقد عمّ الجهل البلاد وفسدت طبائع الناس، فلا ترى فيها غير المفسدين والمنافقين والقابعين المستسلمين للأمر الواقع:

شباب الجزائر والقلب دام ألا من مغيث ومن منجد
تضافرت القارعات الشداد وتاه البصير مع الأرمد
وحاق البلاء، وعم العذاب وفي الجيد حبل من المسد
وليل الجهالات أودى بنا إلى الموت قسرا ولم نلحد
فما إن ترى غير داعي الضلال فمن ذي نفاق ومن ملحد[1]

2 – شعر النضال والتأهب الثوري

لقد أصبح شعراء الجزائر جزءا رئيسيا من جبهة التصدي للاستعمار، ورفع الشعر لواء الثورة قبل وقوعها بزمن طويل، فخاض الشعر غمار الحرب وهي ما تزال حبيسة النفوس التي كانت تمور بها، وتنتظر لحظة الانفجار، وأصبح الموضوع الذي تدور حوله جميع أعمال الشعراء هو كيفية مقاومة المستعمر والوصول إلى الثورة وتحرير البلاد.

وحين نتتبع مظاهر أسلوب النضال الشعري في مواجهة الاستعمار، يمكن تقسيم المرحلة إلى قسمين:

أ – شعر النضال قبل سنة 1945م.

وتمتد هذه المرحلة بين (1936–1945) ويطلق عليها أبو القاسم سعد الله اسم مرحلة شعر البناء[2].

كان التعنت الاستعماري دائما يدفع الجزائريين إلى المواقف الثورية، وقد تجسم هذا التعنت في كثير من المواقف الاستفزازية التي وقفتها الإدارة الفرنسية في وجه نشاط رجال الحركة الإصلاحية كالقرار الذي أصدره عامل الجزائر عام 1933، الذي يرمي إلى إيقاف نشاط المصلح الخطيب

[1]– مفدي زكريا: أمجادنا تتكلم، جمع وتحقيق، مصطفى بن الحاج بكيرة حمودة، نشر مؤسسة مفدي زكريا والوكالة الوطنية للاتصال والنشر، الجزائر، 2003، ص 67–69.

[2]– ينظر: المرجع انفسه، ص36.

الشيخ (الطيب العقبي) في الوعظ والإرشاد، وقد أثار القرار موجة من الاستياء الشعبي كاد يفضي إلى ثورة شعبية حيث " تجاوزت الحادثة الجزئية إلى التلويح بمطامح سياسية، والتوعد بمواقف ثورية. وأفضل ما يعبر عن هذه المشاعر المحتبسة في النفوس، هذه الأبيات للشاعر محمد العيد التي تصور الثورة الكامنة في المُهَجِ، يوشك أن يكون لها ضرام، وهي مأخوذة من قصيدة (براك الله للذكرى حساما) ألقاها في الحفلة التي أقامها نادي الترقي لجمعية العلماء بمناسبة ما قرّره مجلس إدارتها من خروج وفودها للوعظ والإرشاد متحدّين الإدارة الاستعمارية، يقول الشاعر سنة 1936:

أرى الأنفاس مرهقة بجوٍّ كمثل الغاز، يوسعها بخنق
يدوّي بالوعيد دويّ رعد ويومض بالردى إيماض برق
أيوثق بالأداهم كل كف ويوطأ بالمناسم كل عنق؟
فمهلا يا زمان البغي مهلا فقد أعيا كواهلنا التلقي[1] ؟

أما الحادثة الثانية التي يتجلى فيها استفزاز الاستعمار للشعب ودفعه إلى الثورة، فهي التهمة التي وُجهت للطيب العقبي سنة 1936 باغتيال مفتي الجزائر الرسمي (ابن دالي عمر) المعروف بالمفتي كحول الذي كان مناوئا لجمعية العلماء، فقد ألصقت التهمة بالشيخ الطيب العقبي، وزُجَّ به في سجن بربروس "وقد ظلت محاكمات هذه القضية سارية حتى سنة 1939، وتجسم فيها أبشع مثل للتواطؤ بين إدارة الأمور الأهلية ورجال الدين الرسميين لضرب الحركة الإصلاحية"[2]، وشغلت القضية الشعراء والجماهير "التي ظلت تروح وتغدو على (نادي الترقي) متسائلة مستفسرة عن مصير زعيم حركتها، وخطيب ناديها، تتميز من الغيظ والغضب وقد صور محمد العيد هذا الموقف في قصيدة (حزب مصلح) سنة 1936:

من رأى الأشياخ ، تُملي وتُمضي وتـــجيل الرأي فيما تجيل
من رأى الشبان هاجوا وماجوا وانبروا كالأسد إن غيل فغيل
من رأى الشعب يروح ويغـدو ولـــــــه مثل الحمام هديل
ومن الأبصار شزر وخـزر ومن الأفواه قال وقيـــــل

[1] – محمد العيد آل خليفة:: الديوان، ص83.

[2] – صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص194.

لو تركنا الحزم فـيها فتنة فيها الدمـاء تســيل[1]

وفي هذا الشأن يقول عبد الله ركيبي: "وقد يعجب الدارس للشعر الجزائري –في هذه الفترة– عندما يعثر على شعراء يدعون دعوة صريحة إلى الجهاد والنضال، و ينادون بالكفاح من أجل الوطن، ذلك لأن الشعر في معظم أحيانه يدعو إلى النهوض والتحرر ولكن في هدوء واتزان، وغير ما عنف أو قوة"[2].

ويستدل على ذلك بأمير شعراء الجزائر (محمد العيد) الذي كان يتألم كثيرا باسم الشعب لما أصاب البلاد من رزايا، ويصور ضيق الشعب بأغلال الاستعمار وبدسائسه ومكائده في قصيدته (ذكرى المؤتمر) التي أنشدت في الذكرى الأولى للمؤتمر الإسلامي في شهر أوت سنة 1937:

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض بلا مهل فقد طال الرقود
وقل يا ابن البلاد لكل لص تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا تظللك البنود أو اللحود
بغى الباغي رداك فخاب سعيا وللباغي الردى ولك الخلود[3]

ب– شعر النضال بعد سنة 1945

كان الأدب ومنه الشعر في مرحلة ما بعد 1945 مرآة عكست ما تَمُور به نفوس الشعب الجزائري من عواطف وانفعالات، وسلاحا نضاليا عبّر عن آماله وآلامه في هذه الفترة الحُبلى بالأحداث. وكان أهم حدث زلزل النفوس هو الكيفية التي واجهت بها فرنسا المتظاهرين الجزائريين في ثامن ماي 1945، الذي أسال الكثير من الدماء، وترك في نفس كل جزائري جراحا لا تندمل وذكرى لا تنسى. ويطلق أبو القاسم سعد الله على هذه المرحلة اسم شعر الهدف. وبسبب هذه المأساة "ظهرت في أفق الجزائر ألحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم

[1] – محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص130.
[2] – عبد الله ركيبي: دراسات في الشعر العربي الجزائري الحديث، ص21.
[3] – المرجع نفسه، ص304 – 305.

الرفراف، إلى آخر هذه الرموز المقدسة لدى الشعب، التي لم تكن لتظهر لولا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف"[1].

وبسبب هذه المأساة "ظهرت في أفق الجزائر ألحان الحرية والضحايا والاستقلال والعلم الرفراف، إلى آخر هذه الرموز المقدسة لدى الشعب، التي لم تكن لتظهر لولا التطور الكفاحي الذي كان يدنو من الهدف".[2]

وفي هذه الحادثة "اكتسب الشعب الجزائري تجربة جديدة نبهته إلى الحقيقة المرة وهي أنه لا أمل في التحرر من غير سلاح.

لقد استقبل الشعراء حوادث الثامن ماي بالوجوم الذي يسبق العاصفة، وساد الساحة الأدبية صمت كبير، حتى تساءل بعض النقاد: هل في الجزائر شعراء؟ جاء ذلك في مقال للكاتب حمزة بوكوشة نشرته جريدة البصائر سنة 1949: "سؤال يكاد الإنسان يجيب عنه بديهيا بأن في الجزائر شعراء كثيرين ، لكن إذا أمعن المسئول النظر فيه وتعمق في فهمه، يجيب بقول الشاعر:

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير لكن لا أرى أحدا

هذا إذا استثنينا محمد العيد وطبقته، تلك الطبقة الغابرة الدابرة التي نشأت مع الحركة الإصلاحية في مبدأ تكوينها"[3].

فقد أطل علينا محمد العيد في الذكرى الثالثة لحوادث الثامن ماي بقصيدة (لا أنسى) التي تفيض ألما وحقدا، وبُغظا شديدا للعدو، بدأها بتصوير أثر الحادثة على نفسه، وما أحدثته من جرح أفقده توازنه وقدرته على التعبير:

أأكتم وجدي أو أهدئ إحساسي و (ثامن ماي) جرحه ما له آسي

وأرقب ممن أحدثوه ضماده وهم في جماح لم يميلوا لإسلاس

ثم ينتقل الشاعر إلى وصف جرائم الاستعمار المادية المروعة التي ارتكبها في حق الشعب الجزائري الأعزل، هذه الجرائم التي كذبت مزاعم فرنسا الحضارة، وفنّدت وادعاءاتها ووعودها الكاذبة، فقد أُخْليت الديار من أهلها، وسيق الأحياء إلى القبور بقسوة كبيرهم وصغيرهم،

---

[1]– أبو القاسم سعد الله: دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص43.

[2] – المرجع نفسه، ص43.

[3] – حمزة بوكوشة: (هل في الجزائر شعراء) جريدة البصائر، ع85، الإثنين 7 رمضان 1368هـ/4جويلية 1949م.ص8.

وفتحت السجون والمحتشدات للآلاف منهم، واستبيحت حرمات النساء وجرّدن من حليهن من غير وازع، في منظر بشع لم ير التاريخ مثله، يقول:

فضائع (ماي) كذبت كل مزعم لهم ورمت ما روّجوه بإفلاس
ديار من السكان تخلى نكاية وعسفا وأحياء تساق لأرماس
وشيب وشبان يسامون ذلة بأنواع مكر لا تحدّ بمقياس
وأحباس شر أجمعت سجناؤها ومعتقلوها أنها شرّ أحباس
ومعتقلات في العراء مبيدة عليها لصوص في ملابس حراس
وغيد من البيض الحسان أوانس تهان على أيدي أراذل انكاس
ويسلبن من حلي لهن مرصع بكل كريم من جمان وألأماس
وينكبن في عرض لهم مطهر مصون الحواشي طيب العرف كالآس
فيا لك من خطب تعذر وصفه فلم تجر أقلام به فوق أطراس[1]

إلى أن يقول:

ولا خير في عدّ المظالم وحدها إذا لم نبن عن مرهفات وأتراس
سئمنا من الشكوى إلى غير راحم وغير محقّ، لا يدين بمقياس[2]

ومن الشعراء الذين سجلوا هذا الحدث التاريخي الهام في شعرهم الربيع بوشامة، فقد تحدث بإسهاب عن نكبة الثامن ماي وفجّر ينابيع الإحساس الأليم في قصيدة (عجبا لوجهك كيف عاد لحاله)، فبدأ قصيدته بالدعاء على هذا الشهر، الذي أصبح رمزا للفاجعة لهول ما حدث فيه من مجازر تشيب لها النواصي وتذوب الأكباد:

قُبِّحت من شهر مدى الأعوام يا (ماي) كم فجعت من الأقوام
شابت لهولك في الجزائر صبية وَ انْمَاع صخر من أذاك الطامي
وتفطّرت أكباد كل رحيمة في الكون حتى مهجة الأيام[3]

3 – شعر الثورة والتحرر

---

[1] – محمد العيد آل خليفة: المصدر السابق، ص326.

[2] – المصدر نفسه، ص326.

[3] – الربيع بوشامة: الديوان، ص58.

لقد التزم الشعر الجزائري بقضايا التحرر الوطني منذ الغزو الفرنسي، ولعل ما يؤكد هذا هو ما قاله الأمير عبد القادر في معاركه ضد الفرنسيين، فمعظم قصائده كانت تدور حول الحرب والبطولات العربية. وفي مثل هذا السياق قال عبد الله ركيبي: " من عاش قبل الثورة واطلع على ما كتب من شعر ونثر يدرك بأن أدب ما قبل الثورة قد مهّد للفكر الثوري الذي ظهر في ثورة نوفمبر 1954، لأنه لا ثورة دون فكر ثوري سابق لها"[1]. ويضيف: "والذين يزعمون أن أدباء الثورة لم يلعبوا دورهم كما ينبغي يبالغون في أحكامهم...لأن الأديب لا يمكن أن نطلب منه أن يكتب غير ما كتب نظرا للظروف التي كان يعيشها"[2].

أما الشعراء ، فمعظمهم كان له باع أو ذراع في الثورة، ومنهم: مفدي زكرياء ومحمد الشبوكي وأبو القاسم سعد الله وصالح خرفي وصالح خباشة ومحمد الصالح باوية، فإن دواوينهم التي تضم الشعر الصادر في مرحلة الثورة تفي بمتطلبات هذا المبحث لما فيها من جرأة في التعبير ووضوح في المبدأ، فقد سجل معظم هؤلاء الشعراء وقفات رائعة إلى جانب الثورة التي أرهص لها بعضهم وبشّر بها بعضهم الآخر، وقد أصبحت هذه الثورة هاجسا لهم ولغيرهم من الشعراء العرب، هي التي تعطيهم وضعهم الطبيعي الذي يجب أن يكونوا عليه "وما دامت الكلمة في بعض الأحيان مهما كان تأثيرها لا تعطي النتائج المرجوة"[3]، فقد كان من الطبيعي أن يبحث عن البدائل التي تصورها مفدي زكريا في صوت الرصاص وحدّ السيف إذ يقول في قصيدة (وتعطلت لغة الكلام) من سجن بربروس سنة 1957:

نطق الرصاص فما يباح كلام وجرى القصاص فما يتاح ملام
وقضى الزمان فلا مرد لحكمه وجرى القضاء، وتمّت الأحكام
السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام
والنار أصدق حجة فاكتب بها ما شئت، تصعق عندها الأحلام[4].

---

[1] – محمد الطاهر يحياوي: أحاديث في النقد والأدب، شركة الشهاب، الجزائر،1990، ص20.

[2] – المرجع نفسه، ص21.

[3] – العربي دحو: قراءات في ديوان العرب الجزائري، ص66.

[4] – مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص ص42-43.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن الثورة محمد الأخضر عبد القادر السائحي* في قصيدة (بيعة) الصادرة بتونس في 1956/04/13م، التي يبين فيها خط الثورة الذي رسمه الشعب الجزائري بإعلانه الحرب بعدما كاد يتعرض للفناء على يد الاستعمار، فقد اتخذ المجاهدون من الجبال قلاعا لرفع ألوية النصر، ولم يعد هناك مجال للنوم أو الخوف من الطغيان، بعدما هزت الحرب أركان العدو:

رجال في الجزائر لن يحيدوا عن المثل الذي رسمه رمزا
فما سكنوا الجبال جناة جرم ولا عرفوا إلى الأموال كنزا
ولكن أمة تفنى، وشعب يبدد شمله مكرا ونبزا
حدا بهم إلى تحرير أرض ورفع لوائها قهرا وبزا
وكيف ينام في أرض شباب أبى عن موجة الطغيان فوزا
وشنّ الحرب للتحرير حربا تهز الغاصبين هناك هزا[1]

وفي إحدى قصائد الديوان السابق الذكر موسومة ب (البعث) نشرت بمجلة الآداب سنة 1956، يشبه الثورة بالبعث، ويدعو الشعب إلى الاستعداد له، فقد عمت الثورة ربوع الوطن، فعرب الأطلس قد ثاروا، وأهل وهران يصنعون المجد، وفي قسنطينة يُحفر قبر العدو، والفجر يؤذن بالبزوغ:

في ليالي البعث..في عيد العناق.
وأعِدّوا إن يوم البعث جاء
إن أهلي عرب الأطلس ثاروا
عبر(وهران) التي تصنع مجدا
و(قسنطين) التي تحفر لحدا

*- محمد الأخضر عبد القادر السائحي (الصغير) من مواليد 1933بتقرت، قضى حياته بقرية بلدة عمر، تتلمذ على يد ابن عمه الشاعر محمد الأخضر السائحي الكبير بباتنة، التحق بجامع الزيتونة بتونس سنة 1949، ونال شهادة التطويع سنة 1956. شارك في الثورة في إطار الإتحاد العام للعمال الجزائريين، و الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، وفي نطاق جبهة التحرير الوطني، تنظر حياته في: الكهوف المضيئة، ص173-174. وفي: الربعي بن سلامة وآخرون: موسوعة الشعر الجزائري، ص23. وفي: عبد الملك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، ص232.

[1] - محمد الأخضر عبد القادر السائحي: الكهوف المضيئة، ص49-50

وتعبّ النصر من نبع الصباح[1]

مضامين شعر الثورة

أ- تخليد الشهداء

برز أثناء اندلاع الثورة التحريرية شخصيات قيادية، كان لها أثر كبير في سير الكفاح، حيث تمكن هؤلاء من الصمود وإعطاء صور رائعة في الصمود والبطولة، على الرغم من القمع المسلط والتعذيب الممارس عليهم.

وقد حرص الشعراء على تخليد أولئك القادة الأبطال، وسجلوا ما كان منهم من تضحيات وصمود أسطوري في ساحات الوغى أمام جلاّديهم، وهم يساقون إلى المقاصل. وفي هذا الشأن يقول الربيع بوشامة:

حيّ البطولة في حضن الدم القاني وابك الدموع...ذوب وجدان

هذا ابنك الحر في ساح الجهاد قضى هذا على الحمى ممدود جثمان[2]

ومن سجن بربروس ينقل مفدي زكرياء في قصيدته (الذبيح الصاعد) قصة أول شهيد يدشن مقصلة العدو، وهو المرحوم (أحمد زبانا) الذي استقبل حكم الإعدام الصادر في حقه بشموخ وثقة بالنصر، فكان طعم الاستشهاد لديه أفضل من لذة الحياة، ورسخت صورته في المخيال الوطني العام رمزا للإيمان بالمبدأ والوفاء بالعهد، يقول الشاعر:

قام يختال كالمسيح وئيدا يتهادى نشوان، يتلو النشيدا

حالما كالكليم ،كلمه المجد فشدّ الحبال يبغي الصعودا

وتسامى كالروح في ليلة القـ ـدر، سلاما يشعّ في الكون عيدا

و امتطى مذبح البطولة معرا جا، ووافى السماء يرجو المزيدا

زعموا قتله وما صـــــلبوه ليس في الخالدين عيسى الوحيدا[3]

---

[1] – المصدر نفسه، ص28.

[2]– الربيع بوشامة: الديوان، جمع وتقديم جمال قنان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الرويبة، الجزائر، 1994، ص 64.

[3]– مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص9.

وعندما سقط الأديب (أحمد رضا حوحو) شهيدا سنة 1956، رثاه صالح خباشة بقصيدة (نم قرير العين) ضمنها جرائم الاستعمار الذي لم يكفه ما أراقه من دماء وما استباحه من صغار ونساء، ولم يرتوِ إلا بعد قتل العلماء والأدباء، معتبرا استشهاده حدثا مؤلما في الساحة الأدبية:

هل كفاهم ما أراقوا من دما واستباحوا من صغار ونسا
أم تراهم ما ارْتَوَوا، تَبًّا لهم فأبوا غير دماء العلما
رُعْتنا مُذْ غِبْتَ يا حوحو فما أعظم الخطب بساح الأدبا[1]

ب- تمجيد الزعماء

حين نتحدث عن المدح في شعر الثورة الجزائري فإننا لا نريد به المدح العادي الذي ظهر في الشعر العربي القديم، وإنما نريد به مدح الزعماء الذين كان لهم دور في التمهيد للثورة، أو دور في القيام بها، وهذا مدح "يطغى عليه طابع ثوري صميم، لأن الشاعر فيه لا يولي اهتماما إلا للقضية الوطنية، فهي مقياسه الوحيد، ولأن الشاعر في جزء كبير من هذا الشعر لا يعبر عن عاطفته الخاصة، و لا يتحدث باسمه، وإنما باسم الجزائر وثورتها. يقول مفدي زكرياء في هذا الشأن:

وقالوا مدحت المالكين أجبتهم هل المدح في غير المناجيد من شأني
إذا ما استقام المالكون مدحتهم وصغت مديحي من قواعد إيماني
ولولا كفاح ما مدحت (محمدا)* ولا جئت بالآيات في الحسن الثاني
ومن لم يُوَفِّ الْحُرَّ شُكْرًا مُكابِر ومن يجحد الإنسان، ليس بإنسان[2]

وما دامت الثورة لم تنطلق من فراغ، فقد رأى الشعراء أن يخلدوا الزعماء الذين مهّدوا لها، وهيئوا لها الفتيل، ويعد ابن باديس رائدا في هذا المجال، حيث أسس جمعية العلماء وقدّم للجزائر خدمة جليلة في التوعية والتربية والتهيئة لجو الثورة، فكان جديرا بأن يُخلّده أبو القاسم سعد الله بذكر بطولاته وأمجاده، حيث يقول في قصيدة قدوة الأحرار سنة 1955:

أنت الذي بعثتنا من العدم

---

[1] - صالح خباشة: الروابي الحمر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971، ص117.

* - المراد بمحمد هنا هو محمد الخامس ملك المغرب الراحل.

[2] - مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص 322.

ورُضتنا على الكفاح والشمم

وقدتنا نحو الضياء

مستهدفا بنا القمم

لنجني الحياة

ونزدهي على الأمم

بمجدنا التليد وبعثنا الجديد[1]

ج- نضال المرأة

برز اسم المرأة الجزائرية في الثورة وأهاب الشعراء بشجاعتها وجهادها وتضحياتها وعبروا عن إعجابهم بذلك، ودعوها إلى مساندة الرجل في أعبائه وخوض غمار الحياة، وكسر العادات والتقاليد التي جعلتها حبيسة في البيت فترة طويلة من الزمن، فاستجابت للنداء وتخطت أسوار التقاليد البالية، وقفزت قفزتها الثورية إلى قمم الأطلس وساحات المعارك، وتجلت بطولة المرأة في مجالات متعددة، فهي ثائرة أثناء الثورة ، فهذا محمد العيد يقدم قصيدته (ثورة بنت الجزائر) يتحدث على لسان المرأة الجزائرية، يصف مشاعرها ومواقفها ومشاركتها في الثورة والكفاح المسلح، و يصور شجاعتها الفائقة

قد سبقن الرجال في البأس صبرا و تحملن فتنة الأضداد

وأثرن الأبطال للثأر منهم فاستباحوا زروعهم بالحصاد د[2]

و لمفدي زكرياء في قصيدته (الذبيح الصاعد) شهادة قوية على أن المرأة الجزائرية، لم تتردد في الانضمام إلى الثورة في عامها الأول، وتشاطر أخاها الرجل في أعباء حرب التحرير، جنديا أو في تكفلها برعاية المجاهدين وإيوائهم ومعالجتهم:

وصبايا مخدّرات تباري كاللبوءات، تستفز الجنودا

شاركت في الجهاد آدم وحوا ه، ومدّت معاصتتتما و زنزدا

أعملت في الجراح، أنملها اللـ دن، وفي الحرب غصنها الأملودا

---

[1]- أبو القاسم سعد الله: الزمن الأخضر،عالم المعرفة للنشر والتوزيع، باب الزوار، الجزائر، ط3، 2010، ص157.

[2]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص430.

فمضى الشعب بالجماجم يبني أمـــــــــة حرة، ومجـدا وطيدا[1]

ولصالح خرفي في هذا المجال قصيدة يتغنى فيها بتضحيات المرأة الجزائرية وبطولاتها في ميدان الكفاح بعنوان (استريحي يا جميلة) نضمها سنة 1958، بمناسبة إصدار حكم الإعدام في حق المجاهدة (جميلة بوحيرد) التي صارت رمزا للنضال، وأسالت حبرا كثيرا في شعر الثورة، وعُدّت مكونا إبداعيا، ورمزا أسطوريا:

لن تموتي يا جميلة

قالها الناس ولكن لم أقلها يا جميلة

أنا أهوى أن تموتي يا جميلة

أملي أن تستريحي يا جميلة

فالردى في وهج القسوة أنسام عليلة

إن في موتك للشعب انتصارات جليلة

إن في شنقك ويلات على أيد دخيلة

صرخة منك وآهات وأنات عليلة

فجّرت بالعطف دنيا هي بالعطف بخيلة

قرّبت للشعب مرماه وللباغي أفوله[2]

د- جبهة التحرير الوطني:

تردد اسم جبهة التحرير الوطني في شعر الثورة باعتبارها رمزا لوحدة الحركة الوطنية، ولأنها محور النشاط والتعبئة الثورية والقيادة المركزية لكل عمل نضالي.

وللشاعر محمد الشبوكي قصيدة قيلت في أواخر 1955، موسومة ب (خبّروا الدنيا) يتحدث فيها عن انطلاق الثورة، وكيف هبّ الشعب الجزائري صفا واحدا وخاض ساحات الوغى في صمود وهو عاقد العزم على التحرير، استجابة لنداء جبهة التحرير الوطني:

لعلع البارود في كل الجبال وانبرى كل كمي للقـــــتال

وحماة الوطن الشجعان هبوا في صمود نحو ساحات القتال

---

[1]- مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص15.

[2]- صالخ خرفي: أطلس المعجزات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، ص89.

(جبهة التحرير) نادت شعبنا أين من يفدي بنفس أو بمال

أين من يفدي الجزائر التي أبت الضيم و هبّت للنضال

إن نصر الله وافى أسرعوا لاغتنام النصر بالسمر العوالي[1]

أما مفدي زكريا فإنه يمنح جبهة التحرير الوطني ثقته الكاملة، فهي حسب رأيه رجاء الشعب، وعلى يديها يقرر مصيره، وعليها أن تسلك سبيل الخلود، وتكتب التاريخ بدماء الشهداء، وتخلد ثورتها في الكون:

يا (جبهة التحرير) أنت رجاؤنا وعلى يديك إلى المصير زمام

شَفِّي طريق الخالدين، وسَطِّري بدم الشهادة فالدماء قوام[2]

هـ- الشعر وفرحة الاستقلال:

وإذا حاولنا رصد أصداء هذه الفرحة في الشعر فإن معظم الشعراء الذين ذاقوا طعم الحرية كان لهم تجاوب مع فرحة النصر المبين "فهذا محمد العيد يعبر إثر توقيع وثيقة إيقاف القتال- في التاسع عشر من شهر مارس 1962 تمهيدا للاستقلال - عن فرحته وابتهاجه بهذه الذكرى الخالدة التي تمخض عنها ميلاد حكومة جزائري:

وطنـــــي المفدى بالكفاح تحررا ومصيره بعد النجاح تقررا

فابن الجزائر صار سيِّد أرضها والغاصب المحتل ولى مدبرا[3]

وفي المناسبة نفسها (إيقاف القتال) ألقى أحمد سحنون قصيدة مشيدا بالنصر الذي تحقق بالكفاح المجيد من أجل الحرية والكرامة:

اليوم ينعم بال كل شهيد في خُلْدِه ويقيم أعظم عيد

و يقول كل فدائي في حفله اليوم قد حطّمت كل قيودي

اليوم يفتخر (الأمير) بنسله و يقول أبنائي وفّوا بعهودي[4]

---

[1]- محمد الشبوكي: الديوان، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، طبع المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الرويبة، الجزائر، 1995، ص17.

[2] - مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص48.

[3]- محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص 443.

[4]- أحمد سحنون: الديوان ج1، ص 78.

ولم يفوّت صالح خباشة هذه المناسبة في قصيدته (الفرحة الكبرى)[1] على إثر إعلان النبأ العظيم الذي هزّ العالم كله، وهو وقف إطلاق النار، والاعتراف بحق شعبنا الباسل، فيقول معبرا عن نشوة الفرح التي غمرت ربوع البلاد، حين خفق النصر على ربوعها:

خفق النصر في ربوع بلادي أي أرض تقلّني، أي ناد
نشوة تغمر القلوب، وتروي كل شعب إلى التحرر صادي
فرحة العمر تستقر بقلبي فكأني مجـدّد الميلاد
سوف نجني ثمارنا يانعات ما لها من تصوُّح أو نفاذ[2]

[1] – صالح خباشة: الروابي الحمر، ص169.

[2]– المصدر نفسه، ص169.